



النظرية البراجماتية في ضوء آيات القرآن الكريم

أ.د. فاضل محسن الميالي
كلية التربية المختلطة / جامعة الكوفة
الباحث: نصير علي موسى شكر
كلية الفقه / جامعة الكوفة

المُخَصَّص

تعدّ البراجماتية إحدى الفلسفات التي انطلقت في نهايات القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، وكان لها صيتها في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. قام ثلاثة من الفلاسفة بتطوير هذه النظرية، واتخذوا من مبدأ المنفعة والعملية أساساً لهذه النظرية، البراجماتية هي نظرية مادية صرفة، وقد ألغت كلّ ما وراء المادة، واعتمدت على جانب المنفعة، فالفكرة الصائبة عند البراجماتية هي الفكرة التي تؤدي إلى المنفعة، والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو المعيار في تحديد المنفعة، سواء الفردية أم المادية؟

وهذا الفكر هو ما نراه بعينه اليوم ماثلاً أمامنا من خلال سياسات العالم الغربي الذي يستمدّ رؤاه من هكذا نظريات مادية نفعية لا علاقة لها بالإنسان والإنسانية.

وسيحاول التعريف بهذه النظرية، وأشهر روّادها ومقولاتهم، ثمّ يتعرّض لنقدها من خلال القرآن الكريم وأقوال المعصوم (عليه السلام).

الكلمات المفتاحية: النظرية البراجماتية، الفلسفة الغربية، الفلسفة المعاصرة، التربية، النظام التربوي القرآني.

Summary

Pragmatism is one of the philosophies that emerged at the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century, and it had its reputation in the United States of America and Europe. Three philosophers developed this theory, and they took the principle of utility and practicality as the basis for this theory. Pragmatism is a purely materialistic theory, and it eliminated everything beyond matter, and it involved many misconceptions. Our Muslim societies, our professors, and our students should pay attention to the danger of this thought based on benefit. The benefit is nothing else, and this thought is exactly what we see today emerging through the policies of the Western world, which derives its visions from such materialistic theories that have nothing to do with man and humanity.

He will try to define this theory, its most famous pioneers and their sayings, and then criticize it through the Holy Qur'an and the sayings of the Infallible (pbuh).

Keywords: pragmatic theory, Western philosophy, contemporary philosophy, education, the Quranic educational system.

مقدمة

قامت فلسفة النظرية البراجماتية على أمرين أساسيين، هما (المنفعة والخبرة)، أي الجانب العملي في الحياة، ونلاحظ ذلك بوضوح من خلال مؤلفات جون ديوي العديدة؛ الذي ذهب فيها إلى القول بأنّ الخبرة هي أساس كلّ شيء، وتنشأ عن تفاعل الإنسان مع البيئة، أمّا المنفعة فتعني أنّ الأمور النافعة هي الأمور الحقيقية، فكلّ ما هو نافع هو حقيقي.

وقد خاض البراجماتيون – وخصوصاً الفيلسوف ديوي - في كثيرٍ من المسائل الأخرى، مثل: طبيعة المدرسة وما ينبغي أن تكون عليه، والعوامل النفسية عند التلاميذ وضرورة الاهتمام بها، والطريقة المثلى لتنمية المواهب لدى الطلبة، وطبيعة المناهج الدراسية وطرق التدريس، وهذه المسائل خارجة عن محلّ البحث؛ إذ أنّها من اختصاص علم النفس التربوي.

وبما أنّ الباحث يستهدف سبر الأصول والمنطلقات الفكرية للنظريات التربوية؛ لذا سيتوقف عند أمورٍ هامّةٍ، تتعلّق بالوجود والمنظومة الأخلاقية والأهداف التربوية؛ لما لهذه المفردات من أهمّية في فلسفة التربية حيث تنعكس آثارها على السلوك العملي بشكلٍ مباشرٍ.

وقد انتظم البحث في خمسة مطالب، ثم تلتها الخاتمة والنتائج.

المطلب الأول

تعريفها ونشأتها

- تعريفها:

البراجماتية لفظ يوناني (pragma) وتعني العمل، وهي الفلسفة العملية أو النفعية التي تجعل من العمل والمنفعة مبدأً ومنطلقاً^(١)، ولا تقاس صحة القضية عندها إلا بنتائجها العملية^(٢). تدرس هذه النظرية الواقع العملي وليس المجرد، وتهتمّ بالمدرّك لا المتصوّر، والبراجماتية عند الفيلسوف الإيطالي بايني (١٨٨١ - ١٩٥٦م) لا تؤمن بوجود مبادئ ثابتة مطلقة أو حقائق أبدية^(٣)، وتعتمد على مبدأ عام وهو أنّ صحة الفكرة تعتمد على ما تؤدّي هذه الفكرة من نفع، أيّاً كان نوع هذا النفع، وعلى ما تؤدّي إليه من نتائج عملية ناجحة في الحياة^(٤)؛ وقد أعلن البراجماتيون عن أساس نظريتهم هذا بقولهم: «إن المنهج العلمي هو عبارة عن محاولة يراد بها تفسير أي معنى، بتعقّب النتائج العملية المقابلة له»^(٥).

وعليه، فهي فلسفة يقتصر اهتمامها على الجانب العملي، أي المادي الحسّي، وهذا هو الأساس الذي قامت عليه، مستبعدة التصوّرات وما وراء الحواس^(٦)، وتؤمن البراجماتية أيضاً بالنسبية في الحقائق والقيم الأخلاقية، وترى أنّ صحة الأفكار وخطأها يقاس بمقدار المنفعة.

- نشأتها:

ظهرت هذه النظرية في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، وكان أوّل من أطلق عليها اسم البراجماتية^(٧) الفيلسوف والعالم

الأمريكي (تشارلز ساندرز بيرس)^(*) (١٨٣٩ - ١٩١٤م)، وقد طوّرها بعد ذلك الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي الشهير (وليام جيمس)^(**) (١٨٤٢ - ١٩١٠)، الذي قيل إنّ الفضل في انتشارها وازدهارها يرجع إليه^(٨).

ثم جاء الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) (١٨٥٩ - ١٩٥٢م) ليضيف رؤاه على هذه الفلسفة، محاولاً فتح مجالاتٍ عديدةً للتطبيق، حيث أدخل الوسيلة في مفهوم البراجماتية، فجعل المعرفة النظرية أداةً للعمل ووسيلةً لزيادة قيمة التجارب السابقة، محاولاً وضع منطقٍ للتفكير البراجماتي^(٩). وقد ذهب بعضهم إلى وصف البراجماتية بأنها أهمّ فلسفة تربوية ظهرت في القرن العشرين^(١٠).

المطلب الثاني

أنواعها

اتضح من خلال تعريف البراجماتية أنها قائمة على مبدأ يقول بأنّ صحة الفكرة مرتبط بنجاحها النافعة، أو بالنتائج العملية في حلّ المشكلات، وهذا هو جوهر النظرية البراجماتية، ومع هذا، حدثت بعض الخلافات بين الفلاسفة المؤسسين لها، وهي اختلافات جزئية ناظرة إلى النتائج العملية، وهذا الاختلاف حول النتائج ميّز البراجماتية إلى أنواع أربعة هي: (إنسانية، وتجريبية، وإسمية، وبيولوجية).

البراجماتية الانسانية ترى أنّ كل ما يحقّق الأغراض والرغبات الإنسانية فهو حق.

والتجريبية ترى أنّ الحق هو ما يؤدّي إلى عمل، أو ما يكون متحققاً بالتجربة.

والإنسانية هي صورة فرعية من البراجماتية التجريبية.

والبيولوجية ترتبط بجون ديوي، وترى أنّ التأقلم الناجح المؤدّي إلى البقاء والنمو هو المعيار الصادق^(١١).

والواقع أنّ هذه التسميات الأربعة لا تختلف في جوهرها إلّا في بعض الاختلافات الجزئية، ويوحّد هذه الاتجاهات الأربعة مبادئ سيأتي ذكرها عند التطرّق لأقوال مؤسسي هذه النظريات.

المطلب الثالث

أشهر رواد البراجماتية

أشهر من نظر لهذه النظرية ثلاثة فلاسفة، وهم: (وليام جيمس ، تشارلز ساندروز بيرس، جون ديوي):

١ - وليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠م):

مفكر أمريكي من أصل إيرلندي، تلقى العلم والفلسفة في جامعات أمريكية وفرنسية وسويسرية وألمانية، وحصل على لقب الدكتوراه في العام ١٨٦٩، رغم اهتماماته العلمية إلا أنّ اتجاهاته الحقيقية كانت فلسفية دائماً. وكان جيمس قد تعرّض لأزمةٍ حادّةٍ مصدرها إحساسٌ حادٌّ بالعجز النفسي، ولم يخلصه من ذلك سوى كتاب (مقال في النقد العام للكاتب رينوفييه، فاعتنق فكرة أنّ للإنسان إرادة حرة كقيلة بتغيير مصير.

سيطرت المادّية على فكر جيمس الفلسفي ودفعته إلى دراسة الطب، ولكنها لم تسيطر عليه لغلبة مشاعره الدينية حتّى كتب مؤلّفه الضخم (مبادئ علم النفس). ويعد كتابه إرادة الاعتقاد من أعظم كتبه ومحاضراته، وكذا كتابه (معنى الحقيقة)، و(كون متكثّر)^(١٢).

٢ - تشارلز ساندروز بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤م):

ولد في مدينة كيمبردج بولاية ماساشوستس الأمريكية، حصل على بكالوريوس علوم الكيمياء من جامعة هارفرد، واتجه إلى الفلسفة فيما بعد. نظر في المجال الابستمولوجي (المعرفي)، وقال بأننا على وعي بكوننا نتصل

في خبرتنا بالواقع مباشرة، ويتكون الواقع من الأشياء الكائنة سواء فكّرنا فيها أو لم نفكّر. وهو الذي وضع قاعدته البراجماتية الشهيرة القائلة بتدبّر الآثار التي يجوز أن يكون لها نتائج فعلية على الموضوع الذي نفكّر فيه، وعندئذ تكون فكرتنا عن هذه الآثار هي كلّ فكرتنا عن الموضوع^(١٣). أي النظر إلى النتائج المترتبة على الأفكار.

٣ - جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢م):

فيلسوف أمريكي، ولد في برلنجنون، وكان أحد ثلاثة طوّروا الفلسفة البراجماتية، ويعده البعض رائد الفلسفة الأمريكية وممثلها الأكبر، بدأ هيجلياً، لكنه لم يقتنع بدور الفلسفة التأملية، ورأى أن تكون الفلسفة في خدمة الحياة اليومية. ومفتاح فلسفة ديوي هو مفهومه عن الخبرة ونزعتة التجريبية وتعلّقه بالعيني أو المجسم، والمهم عنده هو ربط الوعي بالطبيعة، والخبرة هي خبرة بالطبيعة. هاجم النظريات التربوية التي تجعل من المتعلّم إنساناً سلبياً مهمّته تلقّي المعلومات واختزانها، فالتربية عنده إعادة بناء مستمرة للخبرة. والإنسان عند ديوي مخلوق له قيمة، وهي لا تظهر إلا في المواقف التي تتصارع فيها رغباته أو أخلاقياته، وفي المواقف المُشكلة تظهر ميوله الحقيقية^(١٤).

ويعد ديوي أحد مفكري القرن العشرين، ومن الذين كتبوا ونظّروا في مجال التربية، خصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية بشكلٍ خاصّ، والغرب بشكلٍ عامّ، حتّى ذهب بعض الباحثين إلى القول بأنّه: «فيلسوف المربين وشيخ فلاسفة التربية الحديثة»^(١٥)، فهو الآخر تطرّق إلى مسائل كثيرة تعدّ جوهرية في العملية التربوية، وذلك من خلال مؤلفاته التي أودعها

رؤيته التربوية، وسيأتي بيان ذلك بحوله سبحانه.

المطلب الرابع

أسس الفلسفة البراجماتية ونقدها

قامت فلسفة النظرية البراجماتية على أمرين أساسيين، هما (المنفعة والخبرة)، أي الجانب العملي في الحياة، ونلاحظ ذلك بوضوح من خلال مؤلفات جون ديوي العديدة؛ الذي ذهب فيها إلى القول بأنّ الخبرة هي أساس كلّ شيء، وتنشأ عن تفاعل الإنسان مع البيئة، أما المنفعة(*) فتعني أنّ الأمور النافعة هي الأمور الحقيقية، فكلّ ما هو نافع هو حقيقي^(١٦).

وقد خاض البراجماتيون – وخصوصاً الفيلسوف ديوي - في كثيرٍ من المسائل الأخرى، مثل: طبيعة المدرسة وما ينبغي أن تكون عليه، والعوامل النفسية عند التلاميذ وضرورة الاهتمام بها، والطريقة المثلى لتنمية المواهب لدى الطلبة، وطبيعة المناهج الدراسية وطرق التدريس، وهذه المسائل خارجة عن محلّ البحث؛ إذ إنّها من اختصاص علم النفس التربوي.

وبما أنّ الباحث يستهدف سبر الأصول والمنطلقات الفكرية للنظريات التربوية؛ لذا سيتوقّف عند أمورٍ هامّةٍ، أشرت لبعضها آنفاً، وغيرها من مسائل تتعلّق بالوجود والمنظومة القيمية والأهداف التربوية؛ لما لهذه المفردات من أهميّة في فلسفة التربية حيث تنعكس آثارها على السلوك العملي بشكلٍ مباشرٍ، وهي كما يأتي:

أ – نظرة البراجماتية إلى الكون وخالقه:

فيما يخصّ النظرّة الكونية، حاول جيمس أن يعتمد البراجماتية لحلّ القضايا الميتافيزيقية والعقدية، بما في ذلك وحدة الوجود، وهل الإنسان مجبرٌ أم مخيرٌ، وهل ينطوي الإنسان على بُعدٍ مادّيٍّ أم روحانيٍّ^(١٧)، ويعلن جيمس أنّه حاول تطبيق البراجماتية على الدين، حيث يعتقد أنّ بإمكان البراجماتية تقديم الأجوبة على ذلك كلّ، وذلك من خلال تتبّع النتائج العملية حتّى وُصفت فلسفته بأنّها تجريبية متطرفة تُريد أولاً وقبل كلّ شيء أن تعمل على مناهضة سائر النزعات المثالية^(١٨).

وقد أعلن جيمس عن مسلكه الإلحادي بكلّ وضوح حينما قال بأنّه لا فرق بين المادّة وبين الله سبحانه، فهما يعنيان الشيء نفسه^(١٩)! وأنّ الله سبحانه يستمدّ مقومات بقائه وعظمته وجوده من ولاء الإنسان وإخلاصه^(٢٠)!!

ويقول جيمس في نصٍّ آخر: «إنّ الناس ليتصوّرون الله على أنّه حاكمٌ قويٌّ أو طاغيّةٌ مستبدٌّ، ولكن الله في الحقيقة ليس إلّا واحداً بين معاونين كثيرين في وسط جمهرة من مشكّلي أو صانعي مصير هذا الكون الأعظم!»^(٢١)، ونلاحظ في قوله هذا الخلل العقدي في مسألة توحيد الباري، وبناءً على قوله فإنّ الله سبحانه يعمل مع باقي الناس على قدم المساواة في تحسين شؤون هذا الكون، تبارك الله سبحانه وتعالى شأنه عن مثل هذه الترهّات الإلحادية التي لا تنطلق إلّا عن هوى إنسانٍ ابتعد عن نور الرسالات السماوية، فسبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢٢).

وبالانتقال إلى فيلسوف البراجماتية الثاني (تشارلز بيرس) فهو الآخر اعتمد المنهج العلمي طريقاً وحيداً لإثبات صحّة الاعتقاد، فقد قال في مقالٍ له

تحت عنوان (تثبيت الاعتقاد): «إنَّ خير الوسائل لهذا التثبيت هي المنهج العلمي الذي من شأنه أن يجعل صواب ما نعتقده أمراً يشاهده كلُّ الناس، فتخرج الفكرة من مجرد كونها اعتقاداً ذاتياً عند أحد الأفراد لنجعلها حقاً عامّاً للناس جميعاً» (٢٣).

وهنا يُدعو بيرس صراحةً لإخضاع المسائل العقدية إلى المنهج العلمي (*) لأجل تثبيتها، أي إخضاع العقائد للتجربة، كي يؤمن بها كلُّ الناس وتكون حقاً كما يقول، فكيف لـ(بيرس) أن يعتقد بالوحي عن طريق التجربة وإعمال المنهج العلمي؟ والقرآن الكريم يصرّح بأنَّ ذلك مبني على الإيمان بالغيب وما جاء به الرسل، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٢٤)، ولنعم ما قال الغزالي (ت ٥٠٥هـ) حول مسألة الإيمان بالنبوة: «أن يقرَّ بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عينٌ يدرك بها مدركات خاصّة، والعقل معزولٌ عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات؛ فإن لم يجوِّز هذا، فقد أقمنا البرهان على إمكانه بل على وجوده، وإن جوِّز هذا، فقد أثبتُّ أنَّ هاهنا أموراً تسمى خواص، لا يدور تصرف العقل حوالها أصلاً، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها» (٢٥).

وما قول "بيرس" هذا إلا دليل على ضبابية الرؤية الكونية عنده من جانب، ومن جانب آخر اعتماده اعتماداً كلياً على الملاحظة والتجريب، وعلى هذا الأساس، نجده يقول: «لا يثبت الدين والعقيدة من خلال الحجج العقلية أو اللفظية بين الناس، كما يناقشه الفلاسفة الميتافيزيقيون فيما بينهم، بل يثبت من

خلال الطريقة العلمية التي تخرج الفكرة من مجرد كونها اعتقاداً عند أحد الأفراد، فنجعلها ذات طابعٍ عامٍّ عند جميع الناس وبمعنىٍّ واحدٍ»^(٢٦).

وأكثر من ذلك، فقد جعلوا مسألة (الإله) فكرة جيدة طالما تؤدي إلى النفع!! وذهب (جون ستيوارت مل)^(*) إلى أنّ هذا الإله عاجز وأراد نفع البشرية ولم يتمكّن من ذلك!! ويقترح (ستيوارت مل) أن تأتي الديانة من الإنسان نفسه لا من السماء كيما تكون مقبولة!!

يقول جون ستيوارت مل: «إنّ هناك إلهاً لهذا الوجود، أراد الخير بالإنسان، إلا أن النقص والشر والمعاناة في العالم يستتبع أنّه إله متناهٍ، بمعنى أنّه عاجزٌ عن استكمال النقص أو إخضاع قوى الشر، ومن ثمّ فعلى الإنسان أن لا يتوكل عليه، وأن لا يكون العبد العاجز لإله عاجز، وعليه أن يعمل لسدّ النقص في الطبيعة، والتفوق عليها، وإخضاعها... وللدين نفعه؛ لأن الاعتقاد بوجود إله ييسّر القبول بالفضائل... ولكنه لو أمكن إحلال ديانة إنسانية محل الديانة المنتزلة فإنّ تأثيرها سيكون أبلغ، لأنّها ستغنينا عن اللجوء إلى التفكير الغيبي والتهديد بالبحيم...!!»^(٢٧). ولا يرى هذا الكلام بحاجة إلى تعليق، فهو طافح بالإلحاد وإنكار الخالق، فضلاً عن تهافتة فهو ينمّ عن قصور نظر وسذاجة فكر.

ب – طبيعة المعرفة عند البراجماتيين:

يؤكد جيمس على أحد أهم مبادئ البراجماتية، وهو: أنّ صحّة الأفكار أو خطئها لا قيمة له إن لم تنعكس آثار ذلك على الواقع العملي، أي فائدة تلك الأفكار على الصعيد العملي، وذلك الواقع العملي هو السلوك في الواقع، أي

أن سلوكياتنا تتغير تبعاً لتلك الأفكار^(٢٨).

ويذهب جيمس بالقول إلى أنّ الخلافات الفكرية والعملية لا قيمة لها، إن لم يكن لها ثمرة، فالواجب هو البحث عن الثمرة في تلك الخلافات، وهو ما يسمّيه الفائدة العملية^(٢٩).

ويعتقد أنّ البراجماتية هي (المصير الفاتح)، ويقول إنّه يؤمن بهذا المصير ويسعى إلى إقناع من حوله بهذا. ومع هذا، يعلن صراحة أنّ هناك من يحترم البراجماتية وهناك من يزدريها، ويرى أنّ الغالب لم يفهموا البراجماتية فهماً كاملاً، وهو بعد هذا لا يخفي تمسّكه الشديد بالبراجماتية ويظهر هذا بقوله: إنّ هذا المصطلح جاء ليبقى^(٣٠).

وبعد هذا، يقرّ جيمس بأنّ البراجماتية تقترب كثيراً من التجريبية، ويعلن صراحة أنّ البراجماتية يهيمن عليها المزاج التجريبي الذي يؤمن بالحس والملمس، والذي يدعو للعمل، ويلغي المزاج العقلاني، القائم على مبادئ وعقائد سطحية تدّعي أنّ غايتها الوصول للحقائق^(٣١)!

ويذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يشبّه العلوم الميتافيزيقية بأنّها ضرب من السحر الخارج عن القانون، وإن أردت معرفة ذلك وإجادته فلا بد من معرفة رموز وطلاسم وكلمات معيّنة، أمّا الطريقة البراجماتية فلا تبحث عن هذه الكلمات والرموز، بل تستخرج كلّ كلمة قيمتها العملية وتجعلها ضمن تيار خبرتك؛ لذا فهو يرى أنّ البراجماتية تتفق كثيراً مع (الإسمانية)^(*) ومع النفعية، في ترفّعهما عن الحلول الكلامية والأسئلة عديمة الجدوى وعن التجريدات الميتافيزيقية، ويعترف بأنّ البراجماتية مذهب مردود عند المذهب

العقلي الذي يرى أنّ المعرفة مستمدّة من العقل المحض^(٣٢).

بعد هذا العرض لأهمّ مقولات جيمس التي أودعها في كتابه (البراجماتية) يتضح جلياً منهجه الذي يستند على الحس والتجربة والمنفعة وينفي كلّ ما عدا ذلك.

وكما مرّ فإن جيمس أعلن صراحة أنّ البراجماتية تقترب كثيراً من النفعية، ويرى الباحث، أنّها لا تقترب فقط، بل تتطابق معها؛ إذ تؤكد النفعية على نفس الأفكار التي طرحها جيمس؛ وهو يقتفي أثر "بيرس" الذي يدعى أب البراجماتية حيث يقول: إنّ الحقيقة تقاس بمعيار الفائدة العملية المترتبة على تلك الفكرة^(٣٣).

يرى الباحث أنّ الطرح المتقدّم يركّز على الجانب العملي المادي، فنُقاس الأمور وتوصف بأنّها حقائق طالما كانت نافعة أو مفيدة أو منتجة على اختلاف تعبيراتهم، ولا شأن له بعالم الروح والقيم، كلّ همّ البراجماتية هو (الفائدة العملية)، فهو منهج مادي نفعي صرف، يشدّ الإنسان إلى التفكير بمسائل النفع / الضرر، الربح / الخسارة.

أمّا فيما يتعلّق بالفيلسوف ديوي فهو الآخر ذهب إلى ما ذهب إليه جيمس و بيرس، وردّد نفس ما قالوه، فقد عاب ديوي على الفلسفات القديمة تركيزها على دراساتٍ نظريةٍ ميتافيزيقيةٍ لا تمتّ للحياة الواقعية بصلة^(٣٤).

وبعد كتابه (الديمقراطية والتربية) من أهمّ مؤلفاته التي أودعها جملة ما يعتقد به من مسائل محورية تمسّ التربية، من قبيل: أصل المعرفة، والهدف من التربية، والأخلاق، وغيرها من مسائل لها شديد العلاقة بالعملية التربوية.

ومن شدة اهتمامه بالتربية فقد وصف التربية بأنها «هي الحياة نفسها وليست مجرد إعداد للحياة»^(٣٥). وفي مفارقةٍ عجيبةٍ يذهب فيها ديوي إلى أنّ التربية لا هدف لها خارج عن عملية التربية نفسها! فالهدف الأعلى للتربية – عنده – هو تحقيق استمرارية التربية فحسب^(٣٦)! والحقّ أنّ التربية إنّما هي إعداد للقاء الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(٣٧).

ويبدو واضحاً من آراء جون ديوي أنّه يركز في أهدافه بشكلٍ كبير على الحاضر، ويرفض فكرة اكتساب العلوم والمعارف لأجل الغد أو المستقبل، بل لا بدّ من ربط كلّ معارفنا بالحاضر المعاش، وهي نظرة ماديّة صرفة، تتجلّى هذه الماديّة في قوله: «فالهدف الصحيح إذاً يتنافى من جميع الوجوه مع الهدف المسلّط من الخارج على سير العمل، ذلك أنّ الهدف المسلّط ثابت جامد لا يستحثّ الذكاء في وضع من الأوضاع، وما هو إلّا شيء خارجي يملّي علينا القيام بأعمال معيّنة، وبدل أن يتصل مباشرة بالأعمال الحاضرة، نجده بعيداً منقطعاً عن الوسائل التي تعين على بلوغه...»^(٣٨)، وكأنّ ديوي يتحاشى التصريح بأنّ (الأهداف الدينية) هي أهداف تُملّى من الخارج، ومن ثمّ فلا داعي للاهتمام بمثل هذه الإملاءات الخارجية، فهذا ما يُفهم من كلامه؛ إذ أنّ قوله «واستغلال هذا التدبّر في توجيه الملاحظة والتجربة»^(٣٩) واضح في قبول الاتجاه المادي، ورفض ما عداه.

إنّ توجّه ديوي إلى الحاضر، ودعوته إلى القطيعة مع الماضي والمستقبل أمرٌ يرفضه العقل السليم؛ إذ من الماضي يستمدّ الإنسان فكره

وتاريخه، ومن خلاله يقف على حقيقة ما يعتقده، فلا يمكن بتر الماضي بحال من الأحوال. وهكذا دعوته إلى القطيعة مع المستقبل، فالمستقبل يمثل الأمل والدافع الذي يدفع الإنسان للقيام بمختلف النشاطات، الاجتماعية، العبادية، الاقتصادية... فإن لم يكن ثمة مستقبل فعلاَم السعي والجَدّ؟

ففي الوقت الذي يؤكد فيه القرآن على أن هذه الدنيا لعبٌ ولهو في قوله سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٤٠)، في نفس الوقت يحث الإنسان على عدم نسيان نصيبه من الدنيا ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(٤١) يذكر الباري الإنسان بالمستقبل الموعود وهو وإن الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ^(٤٢)، فالإنسان ينطلق من الماضي ليعي الحاضر، وليدفعه هذا الوعي بالحاضر إلى النظرة المستقبلية اليقينية التي تدفع الفرد دفعاً للعمل والجَدّ والمثابرة في جميع الميادين.

وأما في السنّة الشريفة، فقد أكّد إمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام) على ضرورة العناية بالحاضر والمستقبل، عبر موازنة دقيقة، يقرّها قوله (عليه السلام): «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً»^(٤٣)، فهذه الموازنة الدقيقة بين الحياة الدنيا (الحاضر) والآخرة (المستقبل) هي من يمثّل الرؤية القرآنية وقد أوضحها عنها الإمام أمير المؤمنين في أروع بيان.

وفيما يخصّ المعرفة الإنسانية، رفض جون ديوي القول بأنّ الإنسان يولد وهو مزوّد ببعض المعارف فقال: «وهذه الفكرة التي كان لها نفوذ بالغ

رغم خطئها، هي الفكرة القائلة بأنّ العقل مزوّد حين الولادة ببعض القوى العقلية كالإدراك والذاكرة والإرادة والحكم والتعميم والانتباه وغير ذلك...»^(٤٤). يجزم ديوي هنا بأنّ هذه الفكرة رغم نفوذها البالغ، إلّا أنّها خاطئة!

وهذا الرأي لـ"ديوي" يتعارض مع القرآن الكريم والسنة الشريفة، أمّا تعارض هذا الرأي مع القرآن الكريم، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٤٥)، والآية تشير بوضوح لا لبس فيه إلى أخذ الميثاق، والإشهاد على الأنفس، والاعتراف له سبحانه بالربوبية.

وأما تعارضه مع السنة الشريفة، فقد ورد عن إمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ»^(٤٦)، وغير خافٍ على أهل اللغة ما تدلّ عليه جملة (ليستأذوهم ميثاق فطرته)، فهناك عهد وميثاق سابق، ووظيفة الأنبياء والرسل (عليهم السلام) الطلب إلى الناس للوفاء بذلك الميثاق.

ج - القيم الأخلاقية عند البراجماتيين:

فيما يخصّ الأخلاق ومرجعيتها، يؤكّد جيمس أنّ علم الأخلاق إنساني، وذلك لأنّه يرى أنّ الأخلاق تقوم في عالمٍ به كائناتٌ، لها مطالب ورغبات وإحساسات ومشاعر، وهذه الكائنات هي بنو الإنسان^(٤٧). وفي نصٍّ آخر يقول: «إنّ الإنسان هو الخالق الوحيد للقيم، وليس للأشياء من قيمة خلقيةٍ إلا

باعتباره هو» (٤٨).

وعليه: فإنّ منشأ الأخلاق منشأ إنساني، فهي لا تُفرض عليه من الخارج، بل المجتمع هو الذي يتبنّى ما يراه مناسباً ومتوافقاً مع رغباته وإحساساته ومشاعره كما يقول، وقد تمّ عرض هذا الرأي ونقده في المبحث التمهيدي من هذا الفصل.

ومن مبادئ البراجماتية التي أكّد عليها جيمس هي مسألة القطيعة مع الماضي بكلّ ما فيه، وقصّر الاهتمام على الحاضر، والسؤال عن النتائج المترتبة على الأفكار فحسب، لذا يقول: «إنّ البراجماتي يدير ظهره بعزم وتصميم، وإلى غير رجعة، لعدد كبير من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين. إنّه ينبئ بعيداً عن التجريد، وعن عدم الكفاية، ويُعرض عن الحلول الكلامية، وعن التعليقات القبلية الدرئية (السابقة على التجربة)، وعن المبادئ الثابتة، وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة، وهو يولّي وجهه شطر الاستنادية، والمحسوسية، والكفاية، شطر الحقائق والوقائع، شطر العمل والأداء والمزاولة، وشرط القوة» (٤٩)، وكلامه هذا تأكيد لمنهجه في عدم قبوله للحلول الكلامية والتحليلات العقلية، ولا يخفى ما في هذا التوجّه من طرح مادّي صرف، يُقيم للحس والتجربة والعمل والأداء شأنًا كبيراً، ويُعرض عمّا سوى ذلك.

وحثّى إنّ قال قائل: إنّ البراجماتيون ينظرون إلى القيم بعين الاعتبار؛ لأنّ لها نفعاً وفائدةً عمليةً، وعلى ذلك تدخل الأخلاق ضمن اهتماماتهم.

يرى الباحث أنّ هذا القول يجسّد النفعية بأعلى صورها السلبية؛ إذ

يربطون القيم الأخلاقية بعالم المادّة، مع أنّ القيم تتسامى عن عالم المادّة والمنفعة. ولا ضير أن يكون النفع تالياً، لا مقدّماً، أي أنّ المنظور في المقام الأول هو العمل الصالح والقيمة الأخلاقية لذلك العمل، فالأصل هو قيمة الأخلاق والمبادئ المعنوية بذاتها، وليس المنفعة المتأتية منها.

وهناك فكرة تميّز المنفعة من الموقف الأخلاقي من منظور ديننا الحنيف، ومن منظور البراجماتية، وهي أنّ المنفعة في المنظور القرآني تتكامل مع المنطق الأخلاقي، وتعاليم السماء التي جاءت في القرآن الكريم، وأحاديث الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وعترته الطاهرة (عليهم السلام)، فالمنفعة تتجسّد بتوحيد الله سبحانه، والرجوع إليه. في حين نجد المنفعة عند البراجماتيين تكون متعدّدة ومحدّدة بالمواقف الفردية، وهذا يؤدّي إلى التقاطع في المواقف الفردية والذي ينتهي بحالة من التيه والدوران بحلقة مفرغة، يشعر خلالها الشخص بالتوتر والتهديد؛ ولذلك فهو يحسب كلّ موقف لا ينفعه تهديداً له وبالضدّ منه.

نعم، تعود الأخلاق الفاضلة بالمنافع (الفائدة العملية) على صاحبها، لكن الفارق هو جهة النظر، فتارةً ينظر الإنسان إلى المنافع وما يحصل عليه من فعله الأخلاقي فيكون براجماتياً نفعياً، وأخرى ينظر الإنسان إلى قيمة فعله الأخلاقي على أنّه فعلٌ سامٍ بذاته مرضيٌّ عند الله سبحانه، بغضّ النظر عن المنافع التي سيجنيها منه، فيكون فعل الإنسان أولاً وبالذات فعلاً أخلاقياً، وثانياً وبالعرض نافعاً لصاحبه.

وهذا ما دعا له النظام التربوي القرآني عبر قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ

لَوْجِهَ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا^(٥٠)، وهذا الموقف الذي جسّده الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في حرمان أبنائه الصغار (عليهم السلام) ممّا يسدّ رمقهم، فيؤثر المسكين واليتيم والأسير عليهم، ضارباً (عليه السلام) بذلك أسمى معاني الإيثار، والإعراض عن المنافع الدنيوية، وعدم النظر إلى الذات والمنفعة الشخصية. وهو (عليه السلام) القائل: «ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^(٥١)، محطّماً بذلك كلّ المذاهب النفعية – ومنها البراجماتية – القائمة على النظر للفائدة أولاً وقبل كلّ شيء.

وبالانتقال إلى القيم الأخلاقية ومرجعيتها عند الفيلسوف ديوي نجده يرى أن «القيم الأخلاقية تنبع من الذات الإنسانية، تنبع من صميم الحياة التي يعيشها الإنسان على هذه الأرض، وليست أخلاقاً متعالية تُفرض على الإنسان فرضاً من جهة عليا»^(٥٢).

ومنه يتّضح أنّ ديوي يرفض الأخلاق التي فرضتها الأديان السماوية؛ إذ هي مفروضة من جهةٍ عليا حسب قوله، هذا من جانب، ومن جانب آخر من المؤكّد ستكون هذه الأخلاق – النابعة من الذات الإنسانية كما يقول – أخلاقاً نسبية، فالإنسان في تطوّر مستمرٍّ ودائم، وما يراه اليوم قد يأتي في يوم آخر ليهدمه، وهذا ما نلاحظه في كثير من النظريات التي كانت محلّ اعتماد، ثمّ تمّ نقضها. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ ديوي (قد أخضع القيم الأخلاقية إلى الجانب التجريبي، لأنّه يؤمن إيماناً شديداً بأنّ الخبرة والتجربة هما مصدرا القيم الأخلاقية)^(٥٣).

وبناءً على ذلك، ستكون القيم الأخلاقية قيم نسبية، متغيرة لا تتسم بالثبات والإطلاق. وهذا ما نلاحظه بالفعل؛ إذ نجد أفعالاً يرون أنها أخلاقية داخل مجتمعاتهم، وفي غير مجتمعاتهم لا يحسبونها كذلك، ونجد أفعالاً مصنفة ضمن القيم الأخلاقية في خارج مجتمعاتهم، لا يرى الغرب أخلاقيتها، وهذا ما يجسد حقيقة قولهم بنسبية الأخلاق، وهنا نلاحظ أنّ المكان له دور في وصف الأفعال بأنها أخلاقية أو لا، فما لا يفعلونه داخل مجتمعاتهم، يفعلونه في غير مجتمعاتهم.

وهكذا نلاحظ دور الزمان أيضاً، فبعض الأفعال عندهم كانت معدودة من الأمور الأخلاقية، وبعد تطاول الزمان هجروها، ولم يعودوا ينظروا لها على أنها من الأخلاق، إذن فعامل المكان والزمان له مدخلة كبيرة عندهم في وصف الأفعال بأنها أخلاقية أو لا، وهي النسبية بعينها.

وأضيف هنا، بأنه لا يمكن القبول بهذا الطرح؛ إذ لا يمكن لخصلة أخلاقية أن تكون أخلاقية في زمانٍ دون آخر، رغم كلّ التغيرات، فإنّ الله تعالى «منذ بدء الخليقة دعا الناس إلى الأخلاق، ولم يدع إلى أخلاقٍ ثم دعا إلى أخلاقٍ أخرى مناقضة بسبب اختلاف الزمان والظروف الحياتية! أما العلمانيون فهم في نظام حكمهم لا يعتمدون على مطلعية الأخلاق، بل على نسبيتها، من أجل تحصيل التلاؤم مع كافة المواطنين!»^(٥٤).

والخلاصة، أنّ القول بنسبية الأخلاق «مردود على صعيد القرآن والسنة والمنطق والعقل»^(٥٥).

وإضافة إلى ما تقدّم أقول: لقد جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه في

وصف الرسول الأعظم (ص): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٥٦)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٥٧)، وبضمّ الآيتين الشريفتين ينتج أنّ كلّ أفعاله وأقواله وتقريراته (ص) سواءً بالأمر أو النهي، هي ذات طابع خُلُقِي محض، هذا أولاً، وثانياً: أنّ الله سبحانه دعانا إلى الأخذ بما أمر به (ص) والانتفاء عمّا نهى عنه؛ لأنّه شريعته (ص) هي الخاتمة والناسخة لما سبقها من شرائع، ما يعني أنّ هذه الأخلاق مطلقة راسخة، لا تتغير بتغيّر الأزمنة ولا تتبدّل بتبدّل الأماكن، وبما أنّ فضائل الأخلاق وردانها متصلة بمسألة الحلال والحرام؛ لأنّ الصديق محمود في ذاته ومأمور به ومُثاب عليه، والكذب قبيح في ذاته ومنهي عنه ومعاقب عليه؛ لذا ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): «حلال محمّد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره ولا يجيء غيره»^(٥٨).

لقد ذمّ القرآن الكريم الإنسان النفعي، فقال سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^(٥٩)، فحيث تكون الفائدة نجد الإنسان النفعي يقبل ويسلم بأحكام الله سبحانه، وإذا ما تعارضت أحكام الله سبحانه مع مصالحه يرفضها! وهكذا قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(٦٠)، فيأخذون ما وافق أهواءهم ومنافعهم، وهم اليهود والنصارى الذين جعلوا القرآن أجزاء وأعضاء وقالوا لعنادهم: بعضه حقّ موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما فافتسموه إلى حقّ و باطل»^(٦١)، وأساس هذا التقسيم إنّما هو النظر إلى النفع الشخصي بلا أدنى شكّ.

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ

اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ»^(٦٢)، يشير الباري إلى الإيمان المتزلزل الذي يلهث صاحبه
وراء المنافع والمغانم، فهم «يطمننون إذا ضحكتم لهم الدنيا وغمرتهم
بخيراتها، ويعتبرون ذلك دليلاً على أحقية الإسلام. إلا أنهم يتغيرون ويتجهون
إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالدين والإيمان لديهم وسيلة
للحصول على ما يبتغون في هذه الدنيا، فإن تم ما يبتغونه كان الدين حقاً، وإلا
فلا!!»^(٦٣).

ولا يخفى ما في هذه الآيات الشريفة من مضامين تربوية تسمو بروح
الإنسان، وتشدّ قلبه إلى أن يكون مؤمناً مسلماً راضياً، موقناً بحكمة كلّ ما
فرضه الله سبحانه وأنّ ذلك كلّ في طريق بناء الإنسان وتربيته.

نعم، إنّ الإنسان بطبعه يسعى نحو المنفعة في كلّ شؤونه، ولكنّ التقنين
الإلهي نظم هذه المفردة وضبطها، وهكذا الأحاديث الشريفة الواردة عن أهل
بيت العصمة (عليهم السلام).

ولقد ذكر القرآن الكريم لفظ المنفعة ومشتقاته في آياتٍ عديدةٍ، تربو
على الـ(٥٠) آية، تعرّضت لهذه المفردة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ
فَأِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٦٤)، وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى﴾^(٦٥)، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(٦٦)، وغيرها
كثير.

إنّه من الطبيعي أن يسعى الإنسان إلى ما ينفعه، ويبتعد عمّا يضرّه،

فالمنفعة لا تضاد بينها وبين الدين، شريطة ألا تكون المنفعة الشخصية أو الفئوية على حساب الآخرين وحقوقهم المادية والمعنوية، وهذا ما أقرّه القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة؛ إذ أرسى المصطفى (صلى الله عليه وآله) قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»^(٦٧). أمّا أن يكون النفع والمنفعة الشخصية أو الفئوية على حساب منفعة الآخرين ومصالحهم، فهذا ما حاربه القرآن الكريم، ووضعه تحت مسمّى الظلم وغصب الحقوق.

وعليه، فالقول بالمنفعة من دون قيود وضوابط مستهجن قرآنياً، ومن الخطأ بمكان جعل (المنفعة) هي المعيار والمقياس للحقيقة، ومن ثمّ مبدأ (كلّ ما هو نافع هو حق، وكل ما هو ضار فهو باطل) مرفوض قرآنياً؛ لأنّ البراجماتيين لم يبيّنوا ما هو الميزان في تحديد النافع والضار. وبناءً على نظريتهم هذه فقد يكون «الشيء الواحد حقاً وخيراً بالنسبة إلى من ينتفع به، وشرّاً وباطلاً إذا تضرّر منه آخر... ومعنى هذا كلّه أنّه لا علم وفكر في الواقع، ولا حقّ وصواب ولا دين وأخلاق ولا خير وعدل.. أبداً لا شيء يوصف بشيء يذكر إلا الفعل المحسوس الملموس الذي يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً»^(٦٨).

وقد جسّدوا هذه النفعية المقيّنة في واقعهم العملي، فأنزلوا ويلاتهم على الشعوب، استناداً على هذه النظرية التي برّرت لهم أفعالهم! فطالما أنّ فعلهم يعود على مجتمعاتهم ودولهم بالنفع، فلا غضاضة من ارتكاب الجرائم والموبقات!

وهذا ما قاله صراحة الرئيس الأمريكي ايزنهاور: «إذا كانت القنبلة

الذرية تحقّق لي النصر في الحرب، فإنّ استخدامها حقّ وواجب. وأيضاً شاع عن موسوليني قوله: لقد أفادتني البراجماتية، والفاشية تدين لها بنصيب كبير»^(٦٩)!

هكذا يتمّ تبرير الجرائم وانتهاك حرمة الشعوب، فالبراجماتية هي من هيأت المسوّغ القانوني لأفعال أولئك، وهي وجه آخر لمقولتهم الشهيرة (الغاية تبرّر الوسيلة) التي أطلقها مكيافيلي.

وهنا يبرز تساؤل آخر، وهو: ما معيار النفعية في المجال العملي؟ فقد يكون ما هو مفيدٌ ونافعٌ لشخصٍ ما، ضارٌّ وغير نافعٍ عند آخر، وما يكون مفيداً ونافعاً عند مجتمعٍ ما، قد يراه مجتمعٌ آخر ضراً ولا نفع فيه، فالإنسان «يجرّ النفع إلى نفسه ولو أضرّ غيره، وتشتدّ هذا البلوى إذا تركزت هذه القوة في من يتولّى أزمة جميع الأمور»^(٧٠)، فما السبيل إلى تحديد معيارية الفائدة العملية (النفعية)، ثم أليس هناك أفكار نافعة لا نجد لها تطبيقاً في الواقع العملي، وأفكار ضارّة نجدها تأخذ طريقها إلى الواقع العملي؟

ولم يجد الباحث إجابةً عن هذه التساؤلات؛ إذ لم يحدّد أصحاب المذهب البراجماتي معياراً للنفعية، ولا أعتقد أنّ بإمكانهم ذلك؛ لأنّ هذه القضية نسبية عندهم ما لم يُحتكم إلى أصول ثابتة، وهذه الأصول الثابتة لا يمكن أن تأتي من نظريات وضعية تغلب عليها النزعة الإنسانية، التي تُسقط من حساباتها مصالح الآخرين ومنافعهم، وعليه لا بدّ أن يُحتكم إلى الأصول الشرعية (الدينية) في تحديد معيار النفع والضرر. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، هل يمكن القول بأنّ الأفكار المجردة (العقلية) لا قيمة

لها ما لم يكن لها فائدة عملية، بمعنى أنّها ترفُّ فكري، كما تدّعي البراجماتية ذلك؟

إنّ مسائل التوحيد والعدل - وغيرها من المسائل العقلية والكلامية - مجردة عن عالم المادّة، ومن ثمّ لا أثر لها على الصعيد العملي عند البراجماتية، فهل تكون مثل هذه المسائل عديمة الفائدة؟!

إنّ كثيراً من الاعتقادات العقلية تنعكس آثارها على الجانب العملي، فكيف يدّعي جيمس أنّ (المزاج العقلي قائم على مبادئ وعقائد سطحية تدّعي أنّ غايتها الوصول للحقائق) وأنّها مفاهيم مجردة، أو كليات، ليس لها وجود حقيقي، ومن ثمّ ليس لها فائدة^{(٧١)؟!}

يرى الباحث أنّ الإجابة عن كلّ هذه الإشكالات الموجهة للبراجماتية والتي لا تملك ردوداً ناجعة لها، يجيب عنها القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧٢)، إذ من المؤكّد إنّ الحب للشئ ينطلق من عدّ ذلك الشئ نافعاً، وهكذا البغض ينطلق من عدّه ضرراً، أي أنّ للفعل آثاراً عملية إيجابية أو سلبية بنظر الإنسان، تارةً تكون نافعة - بنظر الإنسان - وأخرى تكون ضارة بنظره. هنا يتدخل القرآن الكريم ليحدّد النافع والضار، عبر ربط ذلك بمسألة الثواب والعقاب، فالفعل النافع ما يُثاب عليه الإنسان، والفعل الضار ما يُعاقب عليه، أي أنّ القرآن الكريم ربط نفع الأفعال وضرّها بعالم الدنيا وعالم الآخرة، عالم الجزاء.

لقد حارب القرآن الكريم الفكر القائم على المنفعة ومقته أيّما مقت،

وأراد بالإنسان أن يسمو عن النظر المادي والمنفعة الشخصية والفئوية، ودعا الإنسان إلى أن ينظر إلى الناس جميعاً نظرة واحدة، لا دخل للعرق أو اللون أو البلد الذي يعيش فيه، وأن يسعى في خدمتهم ونفعهم أينما كانوا، فهم عيال الله سبحانه، ورفع الإسلام شعار «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيته، مؤكّداً على أنّ قيمة المسؤولية تكون باعتبار ما يقع في إطار خدمة الناس ونفعهم على القاعدة النبوية: الناس كلّهم عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله»^(٧٣).

وهنا نستحضر قوله سبحانه في المحاورة التي يعرضها القرآن الكريم بين شخصيتين، قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَدْفَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْنُوءٍ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(٧٤)، تجسّد هذه الآية الشريفة العلاقة القائمة على المنفعة، ونلاحظ الإيمان المتزعزع في التعبير ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾، فالمتحدّث غير مطمئن النفس برجوعه إلى البارئ سبحانه، بل هو يفترض ذلك افتراضاً، لذلك جاء قوله سبحانه بعد تلك الآية كاشفاً عن هذه الحقيقة: ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ إِلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾^(٧٥)، «ليقرّر سبحانه أنّ العلاقة النفعيّة قائمة على الشكّ والريبة وطلب المنفعة»^(٧٦)، وهي أبعد ما تكون عن اليقين والاطمئنان ورسوخ العقيدة.

وليت الأمر توقّف عند هذا الحد فحسب، عند البراجماتيين وغيرهم من أصحاب النظريات الوضعيّة، فقد راحوا يسوّقون فكرهم هذا على أنّه هو

الفكر، وحضارتهم – إن صحَّ تسميتها بحضارة – على أنَّها هي الحضارة، ومن ثمَّ فعلى الجميع الخضوع لهم وذلك بتبنِّي أفكارهم، فجعلوا هذه «الحضارة الشاذَّة النموذج نفسه الذي ينبغي أن تحذوه كلَّ الحضارات الأخرى، وأن يُنظر إليها على أنَّها هي الحضارة بامتياز!!»^(٧٧).

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أنَّ نظرية ديوي في التربية وأفكاره الفلسفية رغم شهرتها وانتشارها في أمريكا وأوربا، إلّا أنَّها واجهت كثيراً من الانتقادات والاعتراضات من قبل فلاسفة الغرب أنفسهم، إذ قام كثيرٌ منهم بالردِّ على ديوي، بعد أن رأوا في نظريته وأفكاره تقاطعاً كبيراً مع ما تقوم عليه مدارسهم الفلسفية وعقيدتهم التربوية^(٧٨).

الخاتمة والنتائج

في ختام هذا البحث، يرى الباحثان أنّ البراجماتية هي نظرية مادية صرفة تنظر إلى المنفعة أولاً وقبل أيّ شيءٍ آخر، وقد ألغت كلّ ما وراء المادة، وانطوت على كثيرٍ من الاعتقادات الخاطئة، وحرى بمجتمعاتنا المسلمة وبأساتذتنا وطلبتنا الالتفات إلى خطورة هذا الفكر القائم على النفع والمنفعة وجعلهما الأساس والمنطلق لأيّ فكر أو حركة يقوم بها الإنسان. وهذا الفكر هو ما نراه بعينه اليوم ماثلاً أماماً من خلال سياسات العالم الغربي الذي يستمدّ رؤاه من هكذا نظريات مادية لا علاقة لها بالإنسان والإنسانية.

أمّا أهم النتائج، فيمكن إجمالها فيما يأتي:

- اتضح ان البراجماتية فلسفة مادية قائمة على النظر إلى المنفعة الفردية أو الفئوية بالدرجة الأساس.
- خلت تنظيرات فلاسفة البراجماتية من الإشارة إلى الجانب الروحي، وكانت جُلّها تركز على الجانب الجسدي في تحصيل اللذة والخير والسعادة.
- يمكن القول أنّها فلسفة مادية صرفة، لا عناية لها بما وراء الطبيعة، بل صرّح كثير من فلاسفة هذه النظريات برؤاهم الإلحادية.

* هوامش البحث *

- (١) ينظر: المذاهب الفلسفية المعاصرة، سماح رافع محمد: ٤٩.
- (٢) الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، د. علي عبدالهادي المراهج: ١٧.
- (٣) ينظر: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبدالمنعم حنفي: ١٥٠.
- (٤) ينظر: مقدمة في الفلسفة المعاصرة، أ.د. محمد مهران رشوان و د. محمد مدين: ٤٢.
- (٥) دراسات في الفلسفة المعاصرة، د. إبراهيم زكريا: ٣٠.
- (٦) موسوعة الفلسفة الغربية المعاصرة، مجموعة من الأكاديميين العرب: ٣٢/١.
- (٧) ينظر: العقل الأمريكي، جلال شوقي: ١٢٠.
- (*) تشارلز ساندرز برس، فيلسوف وعالم منطق وعالم رياضيات أمريكي، ولد في ١٨٣٩ وتوفي ١٩١٤م، يطلق عليه في بعض الأحيان لقب «أب البراجماتية أو العمَلانيّة». (ينظر:

<https://ar.wikipedia.org/wiki>.

(**) عالم نفساني وفيلسوف براجماتي، ولد في مدينة نيويورك في العام ١٨٤٢ وتوفي في العام ١٩١٥م. عيّن مدرساً وأستاذاً للفلسفة في جامعة هارفرد ١٨٧٢ وحتى عام ١٩٠٧، له مؤلفات عدة، منها (مبادئ علم النفس، البراجماتية، معنى الحقيقة، بعض مشكلات الفلسفة، أنواع التجربة الدينية). ينظر: (موسوعة الفلسفة، د. عبدالرحمن بدوي: ٤٤٧/١ و: البراجماتية، وليام جيمس: ٧).

- (٨) ينظر: أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، فؤاد كامل: ١٠٥.
- (٩) ينظر: مقدمة في الفلسفة المعاصرة، أ.د. محمد مهران رشوان و د. محمد مدين: ٤٢ - ٤٣.

- (١٠) ينظر: تطور النظريات والأفكار التربوية، د. عمر الشيباني: ٣٢٩.
- (١١) ينظر: مقدمة في الفلسفة المعاصرة، أ.د. محمد مهران رشوان و د. محمد مدين: ٤٥.

- (١٢) ينظر: موسوعة الفلسفة والفلاسفة، د. عبدالمنعم الحنفي: ٤٩٦ / ١ - ٤٩٧.
- (١٣) ينظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة، جوناثان ري و ج.او. أرمسون: ١٠٢ -

(١٤) ينظر: موسوعة الفلسفة والفلاسفة، د. عبد المنعم الحفني: ١/ ٦١٦ - ٦١٩.

(١٥) المدرسة والمجتمع، جون ديوي: ٩.

(*) مذهب المنفعة يقوم على أساس هو أن صواب أي عمل من الأعمال إنما يحكم عليه بمقدار ما يُسهم به في زيادة السعادة الإنسانية أو التقليل من شقاء الإنسان، ولا يهم شيء فيما عدا ذلك، من قبيل مطابقة العمل للوحي أو للسلطة أو للتقليد أو حتى للحس الأخلاقي أو الضمير، ومن ثَمَّ فإنَّ اللذة هي الشيء الوحيد الذي هو خير في ذاته، والألم هو الشيء الوحيد الذي هو شرٌّ في ذاته، والسعادة تشمل اللذة والتخلص من الألم. ينظر: (الموسوعة الفلسفية المختصرة، جوناثان ري، وج. او. أرمسون: ٣١٣).

(١٦) ينظر: تطور النظريات والأفكار التربوية، د. عمر الشيباني: ٣٤١ و ٣٥٠.

(١٧) ينظر: البراجماتية، وليام جيمس: ٥٢ - ٥٣.

(١٨) دراسات في الفلسفة المعاصرة، د. إبراهيم زكريا: ٢٥.

(١٩) ينظر: البراجماتية، وليام جيمس: ٩٧.

(٢٠) دراسات في الفلسفة المعاصرة، د. إبراهيم زكريا: ٥٢.

(٢١) دراسات في الفلسفة المعاصرة، د. إبراهيم زكريا: ٥٣.

(٢٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢٣) أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، فؤاد كامل: ١٠١.

(*) المِنْهَجُ الْعِلْمِيُّ هو الطريقة التجريبية لاكتساب المعرفة والتي ميزت تطور العلوم الطبيعية منذ القرن السابع عشر على الأقل. حيث أنها تشتمل على دقة الملاحظة والتي تتضمن شكوكًا صارمة حول ما تتم ملاحظته بالنظر للافتراضات المعرفية حول كيفية تأثير العالم على تفسير فكرة ما وصياغة الفرضيات عن طريق الاستقراء القائم على كل من الاختبار التجريبي والقياس القائم على اختبار الاستدلالات المستمدة من الفرضيات وتنقيح هذه الفرضيات على أساس النتائج التجريبية. ينظر: موسوعة الويكيبيديا على الرابط:

<https://ar.wikipedia.org/wiki>.

- (٢٤) سورة البقرة: الآيتان ٢ - ٣.
- (٢٥) مجموعة رسائل الإمام الغزالي، الغزالي (ت ٥٠٥هـ): ٥٦٢.
- (٢٦) البراجماتية وأثرها في المعرفة الدينية، فؤاد صالح الشحمانى: ٩٩.
- (*) جون ستيوارت مل (John Stuart Mill) ١٨٠٦ - ١٨٧٣م، فيلسوف واقتصادي بريطاني، وتوجهه إلحادي نفعي. ينظر: (موسوعة الويكيبيديا، على الرابط: <https://ar.wikipedia.org/wiki>)
- (٢٧) موسوعة الفلسفة والفلاسفة، د. عبدالمعزم الحفني: ١٣٤١/٢.
- (٢٨) ينظر: م. ن: ١٨٢.
- (٢٩) ينظر: م. ن: ١٨٣.
- (٣٠) ينظر: البراجماتية، وليام جيمس: ٥٥.
- (٣١) ينظر: البراجماتية، وليام جيمس: ٥٨.
- (*) الإسمانية مذهب فلسفي يقول إنّ المفاهيم المجردة، أو الكليات، ليس لها وجود حقيقي، وأنها مجرد أسماء ليس غير. ينظر: (البراجماتية، وليام جيمس: ٦٠).
- (٣٢) ينظر: البراجماتية، وليام جيمس: ٦٠.
- (٣٣) ينظر: البراجماتية، وليام جيمس: ٢٤٥.
- (٣٤) تطور النظريات والأفكار التربوية، د. عمر الشيباني: ٣٣٦.
- (٣٥) م. ن: ٣٤٩.
- (٣٦) م. ن: ٣٥١.
- (٣٧) سورة الانشقاق: الآية ٦.
- (٣٨) ينظر: الديمقراطية والتربية، جون ديوي: ١١٥.
- (٣٩) ينظر: الديمقراطية والتربية، جون ديوي: ١١٤.
- (٤٠) سورة الأنعام: الآية ٣٢.
- (٤١) سورة القصص، الآية ٧٧.
- (٤٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.
- (٤٣) من لا يحضره الفقيه، الصدوق (ت ٣٨١هـ): ١٥٦/٣.

- (٤٤) ينظر: الديمقراطية والتربية، جون ديوي: ٧٠ - ٧٠.
- (٤٥) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.
- (٤٦) نهج البلاغة، خطب الإمام علي (عليه السلام): ٤٢.
- (٤٧) ينظر: وليام جيمس، محمود فهمي زيدان: ١٨٢.
- (٤٨) حياة الفكر في العالم الجديد، زكي نجيب محمود: ١٤٩.
- (٤٩) البراجماتية، ويليام جيمس: ٧١.
- (٥٠) سورة الإنسان: الآية ٩.
- (٥١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الخوئي (ت ١٣٢٦هـ): ٣٤٧/١٩.
- (٥٢) تطور النظريات والأفكار التربوية، د. عمر الشيباني: ٣٤٥.
- (٥٣) م. ن: ٣٤٥.
- (٥٤) ثمار الأفكار، علي الكوراني: ٣٩٩.
- (٥٥) الأخلاق في القرآن، مكارم الشيرازي: ٥٦/١.
- (٥٦) سورة القلم: الآية ٤.
- (٥٧) سورة الحشر: الآية ٧.
- (٥٨) الكافي، الكليني (ت ٣٢٩هـ): ٥٨/١.
- (٥٩) سورة البقرة: الآية ٨٥.
- (٦٠) سورة الحجر: الآية ٩١.
- (٦١) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ): ١٢٢/٣.
- (٦٢) سورة الحج: الآية ١١.
- (٦٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مكارم الشيرازي: ٢٩٤/١٠.
- (٦٤) سورة يونس: الآية ١٠٦.
- (٦٥) سورة الحج: الآية ٣٣.
- (٦٦) سورة البقرة: الآية ١٠٢.
- (٦٧) المقنع، الصدوق (ت ٣٨١هـ): ٥٣٧.
- (٦٨) مذاهب فلسفية، محمد جواد مغنية: ١٤٠.
- (٦٩) م. ن: ١٤١.
- (٧٠) ينظر: ميزان الحكمة، الريشهري: ٣٦٣٩/٤.

- (٧١) ينظر: البراجماتية، وليام جيمس: ٥٨.
- (٧٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.
- (٧٣) المجتمع الإسلامي المعاصر، د. محمد كاظم الفتلاوي: ١٦٩.
- (٧٤) سورة فصلت: الآية ٥٠.
- (٧٥) سورة فصلت: الآية ٥٤.
- (٧٦) ينظر: تفسير كنز الدقائق وبحر العجائب، المشهدي (ت ١١٢٥هـ): ٤٦٦/١١.
- (٧٧) ينظر: تطور النظريات والأفكار التربوية، د. عمر الشيباني: ٣٦٦ - ٣٧٢.
- (٧٨) ينظر: م. ن.

* المصادر والمراجع *

- القرآن الكريم، كتاب الله العزيز خير ما نبتدئ به.
١. الأخلاق في القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ط٣، قم المقدسة، ١٤٢٨هـ.
 ٢. أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، فؤاد كامل: ١٠١، الناشر: دال الجبل، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.
 ٣. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (معاصر)، الناشر: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
 ٤. البراجماتية وأثرها في المعرفة الدينية، فؤاد صالح الشحمان، الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، بحث منشور في مجلة الدليل، العدد ٩، السنة ٢٠٢٠م.
 ٥. البراجماتية، وليام جيمس، ترجمة: وليد شحادة، الناشر: دار الفرق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٤م.
 ٦. تطور النظريات والأفكار التربوية، د. عمر الشيباني، الناشر: دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١م.
 ٧. تفسير الصافي، محمد محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، الناشر: مكتبة الصدر، طهران، ١٤١٥هـ.
 ٨. تفسير كنز الدقائق وبحر العجائب، محمد محمدرضا القمي المشهدي (ت القرن ١٢هـ)،

- تحقيق: حسين دركاهي، الناشر: شمس الضحى، طهران، ١٣٨٧هـ.
٩. تفسير مجمع البيان، الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
١٠. ثمار الأفكار، علي الكوراني، الناشر: دار الهدى للطباعة والنشر، قم المقدسة، ١٤٢٥هـ.
١١. حياة الفكر في العالم الجديد، زكي نجيب محمود، الناشر: دار الشروق، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م.
١٢. دراسات في الفلسفة المعاصرة، د. إبراهيم زكريا، الناشر: مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٧م.
١٣. الديمقراطية والتربية، جون ديوي، ترجمة: د. منى عفراوي وزكريا ميخائيل، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.
١٤. العقل الأمريكي، جلال شوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت.).
١٥. الفلسفة البرجماتية أصولها ومبادئها، د. علي عبدالهادي المرهج، الناشر: دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٦. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: دار الكتب الإسلامية، ط٥، طهران، ١٣٦٣ش.
١٧. المجتمع الإسلامي المعاصر، د. محمد كاظم الفتلاوي، الناشر: دار حدود للنشر والتوزيع، ط٢، بيروت، ٢٠٢١م.
١٨. مجموعة رسائل الإمام الغزالي، الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، راجعها وحققها: إبراهيم أمين محمد، الناشر: المكتبة الوقفية، القاهرة، (د.ت.).
١٩. المدرسة والمجتمع، جون ديوي، ترجمة: د. أحمد حسن الرحيم، مراجعة: د. محمد ناصر، الناشر: دار مكتبة الحياة، ط٢، بيروت، ١٩٧٨.
٢٠. المذاهب الفلسفية المعاصرة، سماح رافع محمد، الناشر: مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ١٩٧٣م.
٢١. مذاهب فلسفية، محمد جواد مغنية، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د.ت.).

٢٢. المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبدالمنعم الحفني، الناشر: مكتبة مدبولي، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٢٣. مقدمة في الفلسفة المعاصرة، أ.د. محمد مهران و د. محمد مدين، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٢٤. مقدمة في الفلسفة المعاصرة، أ.د. محمد مهران و د. محمد مدين، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٢٥. المقنع، الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام الهادي (عليه السلام)، قم المقدسة، ١٤١٥هـ.
٢٦. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوني (ت ١٣٢٤هـ)، تحقيق: إبراهيم الميانجي، الناشر: مؤسسة الإمام المهدي الثقافية، طهران، ١٣٦٠ش.
٢٧. موسوعة الفلسفة الغربية المعاصرة، مجموعة من الأكاديميين العرب، الناشر: منشورات ضفاف، بيروت، ٢٠١٣م.
٢٨. موسوعة الفلسفة والفلاسفة، د. عبدالمنعم الحفني، الناشر: مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة، ١٩٩٩م.
٢٩. موسوعة الفلسفة، د. عبدالرحمن بدوي، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٤.
٣٠. ميزان الحكمة، محمد الريشهري (ت ١٤٤٣هـ)، تحقيق ونشر: دار الحديث، ط١، قم المقدسة، ١٤١٦هـ.
٣١. نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، تحقيق: صبحي الصالح، ط١، بيروت، ١٩٦٧هـ.

مواقع الشبكة العنكبوتية:

٣٢. موسوعة الويكيبيديا (<https://ar.wikipedia.org/wiki>)

